بيت الحكمة.. دولة عاشت بعقلها

(إنما يـؤتي هـذا الأمـر من قبـل العلم فـإذا صلح العلم صلح الملك)

أبـو جعفـر المنصـور في حـديث مـع عدد من العلماء

(إن الإسلام مدين إلى هـذا المعهـد العلمي باليقظة الإسلامية الكبرى الـتي اهـتزت بهـا أرجــاؤه والــتي تشــبه في أســبابها، وهي انتشار التجارة وإعادة كشف كنـوز اليونـان وفي نتائجها وهي ازدهار العلوم والفنون)

ابن خلدون

(لقــد بقيتُ عــدّة ســنين معرضًــا عن ذكــر هذه الحادثة استعظامًا لهـا، كارهًـا لـذكرها، فــأيّ إنســان يســهل عليــه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟)

عــز الــدين ابن الأثــير - الكامــل في التاريخ سقوط بغداد

السياسة مفسدة تفرغـوا للعلم إنمـا يـؤتي هـذا الأمـر من قبـل العلم فـإذا صـلح العلم صلح الملك.. هكـذا بـدأ الخليفـة أبـو جعفـر المنصور حديثه مع العلماء الثلاثة عطـاء بن ربـاح - بن جـريج - الزهـري وهم يتطلعـون الى نهـر دجلـة في أمسـية تلـك الليلـة ثم أكمل

- لا اريد أن يتذكرني النـاس بالسـيف بـل بالعلم واريد بغداد أن تكون نـورا للـدنيا كلها.. لقد طلبت من إمبراطور بيزنطـة أن يرســل لــه أعمــال إقليــدس والمجسطي لبطليموس لترجمتها
- حفظ الله الخليفة هذا أمر جيـد أعمـال الترجمة الى العربية تسير بشـكل طيب وبالفعل أصبح لنا مكتبة ملكية هائلة
- بالفعـل تـرجم جـرجيس بن بختيشـوع مؤلفات كثـيرة في الطب من اليونانيـة إلى العربية
- قد لا يتسع القصر لها مستقبلا

يتـــدخل الخليفـــة - اذن ســـيكون للكتب دارها وبيتها المستقل لـو ضـاق بهـا قصـر الخليفة ستحتضن بغداد الجميع

- الأطبـاء النسـاطرة يمرحـون في بغـداد بفضلكم
- يحي بن ماسوية قدم للمكتبــة كتب في الطب والصيدلة
- بغداد تحتضن الجميع وهذه فقط البداية
- حفظ الله الخليفـة بغـداد اليـوم عـامرة بكتب في الطب والنجـــوم والهندســـة والآداب، وكـذلك في التـاريخ والحـديث والأدب وحركــة التــأليف والترجمــة من كل اللغات تدور كما يدور الليل والنهــار ولاتتوقف
- الخليفة بالفعل يرعى عشـرات العلمـاء من كل لون وجنس ودين
- يرهقني الهنود بعد الحديث معهم أشـعر بالارهاق وكـاني عـبرت دجلـة والفـرات سابحا

يضحك الجميع ويكمل الخليفة

- أريـد بغـداد أن تكـون للعلمـاء في كـل الـدنيا وقـد أوصـيت ولى العهـد محمـد بهذه الأمانة
- حفظ اللـه الخليفـه وولى العهـد محمـد المهدي
- العلم قـــوة للخليفـــة والدولـــة ولكن أصـدقوني القـول لقـد كنتم من علمـاء بني أمية فكيف سقطت وأنتم فيها
- رحم الله عمر بن عبد العزيز
- سقطت بني أمية لأنهم عظموا التوافـه وأسقطوا العلم
- يـا أمـير المؤمـنين، سـبب سـقوطهم غفلـــة قلـــوبهم عن العلم والحكمـــة، وانشغلوا بالمال ومظاهر الدنيا.. الملـك بلا علم مثـل الجسـد بلا روح، لا يعـرف الطريق ولا يحكم بالعدل.
- وأنتم ايضا لاتغفلوا عن علومكم فيفسد النـــاس ويغفـــل الخليفـــة عن النـــاس والدولـــة.. صـــلاح العلمـــاء من صـــلاح السلاطين والخلفاء
- حفظ الله الخليفة

- حفظ الله دولتنا بالعلم
- إنما العلم الخشية يا خليفة المؤمنين فاتقوا الله ويعلمكم الله لقد ترك عبد الملك بن مروان مالا لأبنائه يغنيهم الدهر وقد رأيتهم يتسولون الناس ولم يترك عمر بن عبد العزيز شيئا ورأيت ابنائه يتصدقون بالخيل في سبيل الله .. فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا

يختم الخليفة حديثه – حفظ الله بكم الإسلام والعلم ولكن لاتنسوا أن السياسة مفسدة وللحكم قوانينه فلا تزاحموني فيها

يبتسم العلماء الثلاثة وينصرفوا

استمر العطاء العلمي وزادت الكتب حتى ضاق بها قصر الخليفة وفي عهد هارون الرشيد ضاق قصر الخليفة رغم اتساعه بالكتب فأمر هارون الرشيد بإخراجها والمخطوطات لتكون مكتبة عامة مفتوحة أمام الدارسين العلماء وطلاب العلم وهو من سماها ببيت الحكمة وأصبح للعلم بيتا على نهر دجلة وأسند هارون الرشيد

الإشـــراف على حركـــة الترجمـــة في بيت الحكمـــة إلى الطـــبيب والعـــالم يوحنـــا بن ماســـويه، فكـــان يتـــولى تنظيم أعمـــال الترجمـــة ومراجعـــة النصـــوص العلميـــة. واشتهر في عهده مترجمين مثـل حـنين بن إسحاق وثابت بن قرة.

بيت الحكمة في زمن المأمون

شغف المـأمون بن هـارون الرشـيد بـالعلم حـــتى أنـــه كـــان يطلب من المهـــزومين المخطوطـــات الإغريقيـــة مقابـــل توقيـــع معاهـدات السـلام وإطلاق سـراح الأسـرى فقـال عنـه المستشـرق الإنكلـيزي تومـاس هيوز في وصف تلك الحقبة (لقد كانت أيـام المـــأمون من أزهى عصـــور النهضـــة في التاريخ الإسلامي، إذ كان الخليفـة من كبـار العلماء، واختـار أصـحابه ورجـال دولتـه من الصفوة الأفذاذ في الشرق والغرب)

وفي عهد الخليفـة المـأمون توسـعت مهـام بيت الحكمـة ليصـبح مركـزًا علميًـا ضـخمًا، فعيّن سـهل بن هـارون مشـرفًا عامًّا عليـه

ولم يكن دور المشـــــرف مقتصـــــرًا على الإدارة فقط، بل شمل أيضًا الإشـراف على اختيـــار المـــترجمين، وتنظيم المنـــاظرات العلميـــة، وتوجيـــه النشـــاط البحـــثي في مختلف التخصصات.

ما كـان للغـة العربيـة أن تحـل محـل اللغـة اليونانيـة كلغـة عالميـة للبحث العلمي لـولا تلـــك الآليـــة الدقيقـــة الـــتي اتّبعهـــا علمـــاء الترجمة، والجهود الكبـيرة الـتي بُـذلت في سبيل ذلك، فكانت عملية الترجمـة من أدقّ وأهمّ الأعمال في بيت الحكمة، حيث كـانت تمـر بعـدة مراحـل تبـدأ بالترجمـة الحرفيـة للنصوص، ثم يلي ذلك إعادة صـياغتها لغويًّا والنظر فيها.

خلال ذلـــك كـــان لا بـــدّ أيضًـــا من ابتكـــار مصطلحات علمية جديدة، وهي مهمـة بـرع فيهـا العـرب أيّمـا براعـة؛ فكثـير من هـذه الكلمات الكحول والأنبيق والسـيمياء وبـرع علمـــاء من أمثـــال نين بن إســـحاق (808-873م) كـــان ابن إســـحاق من أعلام بيت الحكمـة، بالإضـافة إلى كونـه مترجمًـا فـذًّا،

فقـد بـرع بدراسـة الطب، حيث ألّـف كتبًـا عديدة، أهمهـا: كتـاب (مقـالات في العين)، وكتــــــــاب (المســــــــائل في الطب للمتعلمين).فضـلاً عن ترجمتـه معظم كتب جـالينوس الطبيـة، وكـذلك كتب سـقراط، وأعمال فلسـفية لأفلاطـون وأرسـطو وفي الفلك والرياضيات كان ثابت بن قرة (826 –ــ 901م) كــان عــالم رياضــيات وفلــك سـرياني من حـران شـمال سـوريا، سـاهم في تأسـيس علم الجـبر الحـديث بمفـاهيم رياضــية جديــدة، واشــتهر بإضــافات على أعمال إقليدس. وكانت له البصمة الواضحة في علم الفلـك، حيث أنشـأ جـداول فلكيـة استخدمها الفلكيون لقـرون، ووضـع نمـاذج لحركات الأجرام السماوية. وأيضا محمد بن موسـى الخـوارزمي: (780 –ـ 850م) لم يكن الخوارزمي مجرد عالم، بل كـان رائـدًا عالميًـا وضـع أسسًـا علميـة يعتمـد عليهـا التطـور العلمي الأوروبي حـتى يومنـا هـذا. وألّف كتابه الشهير: (الكتـاب المختصـر في حساب الجبر والمقابلة)، ووضع نظـام العـد

العشــري، أضــف إلى ذلــك تأسيســه لعلم (اللوغــاريتم) إذ اشــتق اســمه من اســمه (الخوارزمي) مصطلح Algorithm. أما في الفلسفة فكان الكندي:(801 – 873م) أول فيلسـوف مسـلم عـربي؛ فلُقّب بفيلسـوف العرب، ترجم وأعاد صياغة أعمـال أرسـطو والأفلاطونيـون الجـدد. وكـذلك الفـارابي: (872 –ـ 950 م)لُقّب بـالمعلم الثـاني بعـد أرسطو، جمع بين الفلسفة اليونانية والرؤية الإســلامية، وكتبَ في فلســفة الطبيعــة والميتافيزيقيا.

أصـبح بيت الحكمـة بيت النـور للعـالم كلـه فهذا الحكم بن الناصر ملك المغـرب يبعث في شــراء الكتب التجــار ويحرضــهم على البذل في سبيلها لينافس بـني العبـاس في اقتنـاء الكتب وتعريبهـا، حـتى قيـل إنـه قـد وصـل عـدد الكتب في مكتبـة قرطبـة نحـو نصـف مليـون كتـاب. أُنشـئت على شـاكلة بيت الحكمة مكتبـة (الزهـراء) في قرطبـة، ومكتبة (العزيز بالله) في القاهرة.

وقــال عنهــا المــؤرخ الأوروبي ســيديو (إنّ علمــاء المســلمين هم في الواقــع أســاتذة أوروبــا في جميــع فــروع المعرفــة) وهــذا جوستاف لويون يقول (لقد عاشــت جامعــة الغــرب خمســمئة ســنة تنقــل عن العــرب وتتعلم منهم)

نشــأ بيت الحكمــة أولًا كمكتبــة ثم أصــبح مركـزًا للترجمـة، ثم مركـزًا للبحث العلمي والتـأليف، ثم أصــبح دارًا للعلم تقــام فيــه الـدروس وتمنح فيـه الإجـازات العلميـة، ثم ألحق به بعد ذلك مرصداً فلكيـاً هـو مرصـد الشماسية وفيه كان المؤلفون يؤلفون كتبًـا خاصة للمكتبة. وعليـه اعتمـد المـأمون في بعثتـه الـتي أرسـلها لقيـاس محيـط الأرض. المدرســة، وفيهــا كــان العلمــاء يلقــون دروسهم للطلبة، وتعقد مجالس المنـاظرة، وتمنح الإجازات العلمية.

قــام المــأمون بإرســال بعثــة للتحقــق من محيط الأرض، وفيـه أن المـأمون سـمع أن بطليموس حسب محيـط الأرض فـأحب أن يتأكد من هذا الرقم الذي ذكره بطليمـوس،

فشكل الخليفة بعثتين علميتين، وأمرهما بالانطلاق إلى منطقتين مختلفتين، وكان على رأس هاتين البعثتين مجموعة من علماء الفلك المشهورين: البعثة الأولى مؤلفة من سند بن علي وأحمد بن عبد الله المروزي وغيرهما، البعثة الثانية مؤلفة من علي بن البحتري وعلي بن عيسى الأسطرلابي، أمر المأمون البعثتين أن يقيسوا قوسًا يقابل مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر منتصف النهار، ودائرة منتصف النهار هي الدائرة التي تكون فيها الشمس بمنتصف النهار، وعندما تتحرك هذه الدائرة بمقدار درجة فهي تعادل درجة على سطح الأرض. سارت البعثة الأولى إلى ما بين واسط وتدمر، وقاست هناك مقدار درجة من أعظم دائرة تمر بسطح الكرة فكانت سبعة وخمسين ميلاً، أما البعثة الثانية فقد سارت إلى برية سنجار وهي صحراء واسعة بين نهري دجلة والفرات على اعتبار أنهم كانوا يبحثون عن أرض منبسطة ليستطيعوا القيام

بقياساتهم، وكانت نتيجة قياس البعثة الثانية ستة وخمسين وربع الميل، ويكون متوسط القياسين ستة وخمسين وثلثي الميل. اختلف العلماء المتأخرين على مقدار طول الميل العربي، ولكن كل حساباتهم التي أجروها على نتائج بعثة المأمون تشير أن البعثة قامت بحساب دقيق لمحيط الأرض وأن أرقامهم قريبًا جدًا للرقم العلمي لمحيط الأرض البالغ 40.075 كم عند خط الاستواء.

لما اضطربت أحوال الخلافة بعد زمن المأمون، ساهمت مؤلفات وعلماء بيت الحكمة في نشأة مراكز ومدارس علمية جديدة في كل من خراسان والري وأصبهان وأذربيجان وما وراء النهر ومصر والشام والأندلس، شجع إنشاء بيت الحكمة دول العالم الإسلامي نحو تأسيس مراكز علمية على غراره، فكانت مكتبة العزيز في القاهرة، ومكتبة الزهراء في قرطبة.

حرق بيت الحكمة

(لقد بقيتُ عدّة سنين معرضًا عن ذكر هـذه الحادثة استعظامًا لها، كارهًـا لـذكرها، فـأيّ إنسان يسـهل عليـه أن يكتب نعي الإسـلام والمسـلمين؟) هكـذا تحـدث ابن الاثـير المؤرخ الشهير والمعاصر لاقتحـام المغـول بغداد وتدمير بيت الحكمة والـذي عـاش مـا يزيد عن اربعة قرون منذ عـام 805 ميلادي حتى 1258 ومر عليه 32 خليفة ليتم حرقه في زمن الخليفـة المستعصـم باللـه ويكفى أن نعرف أنه مـات مليـون من أهلهـا بغـداد في هذه المذبحة وتلون نهر دجلـة بالأسـود من حـبر الكتب وبالـدم من الجثث والـتي غطت شوارع بغداد

أمام تمثال عباس بن فرناس

وقـف المـدرس بتلاميـذ أمـام عبـاس بن فرنـاس على طريـق المطـار في بغـداد وأكمل حديث لطلابه قائلا

- وإذا أردنا تقدير مـدى أثـر بيت الحكمـة على نشوء التعليم العـالي عالميًّا يكفي أن نعـرف أن أقـدم جامعـة في أوروبـا،

وهي جامعـــة (بولونيـــا) في إيطاليـــا، تأسســت عــام 1088م، أي بعــد نحــو قـــرنين من ازدهـــار بيت الحكمـــة في بغداد.

- أين بيت الحكمة اليوم
- لا أثر لها يمكنك فقط التجول على نهــر دجلة وتخيل مكانه
- اذن كتب بغــــداد نهبت مــــرتين 1258 على يـــــد المغــــول و2003 على يــــد الأمريكان
- الى متي يستمر حالنا هكذا أستاذي؟

رد الأستاذ على سؤال زميله قــائلا – لقــد أخبرنا أبو جعفر المنصور (إنما يــؤتي هــذا الأمر من قبل العلم فإذا صلح العلم صلح الملك)

- صلاح الناس من صلاح الملك
- كما تكونوا يول عليكم

وهنا ذكر طالب الآية القرأنيــة (إن اللــه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

يرفع المدرس كتـاب الحيـل لبنـو موسـى ويقول لهم

- هـذا الكتـاب من الكتب الـتي نجت من مجزرة المغول ما رأيك أن نتجـول على نهر دجلة واحكى لكم قصة الكتاب ومن يدري ربما نجد كتابا نسـيه المغـول ولم يحرقوه
- أو نسيه الأمريكان ولم يسرقوه
- العدو لاينسى نحن من ننسى

لم يرد المدرس واستمر في جولته

(رأيت لأبو بكر محمد الصـولي بيتـا عظيمـا مملـوء بـالكتب، وهي مصـفوفة وجلودهـا مختلفـة الألـوان، ولكـل صـنف من الكتب لون، فصنف أحمر وآخر أصفر وغير ذلك)

أبو بكر بن شاذان

(كانت الثقافة الإسلامية مزدهرة وأصـبحت مصدر قوة في الاستكشافات الفكريـة بعـد أن جلبت الثروات العلمية من مدن متعـددة في العالم، وأصبحت بغـداد والقـاهرة تضـم مكتباتها مئات آلاف الكتب، بالضبط كما هو

الوضع الآن في أفضل المكتبات الأوروبية. في إطار البحث العلمي والفكري الحيوي تمكن علماء الإسلام من قياس محيط الأرض، وهو إنجاز لم يقابله إنجاز مماثل في الغرب لمدة ثمانمئة سنة، واكتشفوا الجبر، وكانوا بارعين في علم الفلك والملاحة، ووضعوا الاسطرلاب وغيرها من الآلات الفلكية، وترجموا جميع النصوص العلمية والفلسفية اليونانية من كتب أرسطو وجالينوس وبطليموس وغيرهم، وصنعوا الورق، وأنتجوا العدسات والمرايا، وطوروا الفروع العلمية النظرية. بدونهم لم تكن للمعرفة أن تنتقل إلى الغرب وأوروبا على مدى الألفية الماضية)

الكاتب البريطاني جوناثان ليونس

تمت